الفصل الثالث

العامرُ [١] . الفاقةُ . الإحسانُ

أهميةُ مذهب ملتوس [٢]

يذهبُ سكانُ المعمورِ متكاثرين . وفى معظمِ الاسَرِ يتجاوَزُ البَنُونَ الكمَّ اللازِبَ لِبقاءِ الأهلينَ على عددِهم ، ولا يكترِثُ آباؤُهم لِمَا يجيءُ بهِ المستقبلُ

إنَّ لِمَسألةِ السكانِ هذه شأناً عالياً من حيثُ الاقتصادُ

دَعْ ما تَصدَّت لهُ طائفةٌ من الكتَبَةِ ، ومنها ملتُوس ، مِن الدَّعوى التى أرْسلَتْها على عَوَاهِنِها ، وَعَمَّمَتْها بِغَيْرِ حسابٍ ، فرعبَت القلوبَ زمناً طويلاً ، ورابت نفوسَ العالَمين

---

(١) العامر : اسمٌ جامعٌ للذين يعمرون مكاناً وهو ما يسمى فى اصطلاح هذه الأيام بعدد السكان وفرنسيته Population

(٢) ملتوس (توماس روبرت) اقتصاديٌّ انجليزيٌّ — وُلد سنة ١٧٦٦ ومات سنة ١٨٣٤

كان مَلتوس هذا أُسقُفًا بروتستانياً مُحباً الإنسانيَّةِ ؛ وقد بَحَثَ فى الأَسبابِ النَّاجمِ عنها فَقرُ الأكثرين فَظَنَّ أنَّهُ تَوَصَّلَ الى إدراكِ العلَّةِ الكبرى لتلك العِلَلِ ، وَزَعَمَ أنَّها : « النَّزْعةُ المُستَمِرَّةُ فى كلِّ حيٍّ الى تَنميةِ جِنسِهِ بأكثرَ مما تُجيزُهُ لهُ مقاديرُ الغِذاءِ التى يستطيعُ الحصولَ عليها »

فَهُوَ مع نِسبَتِهِ هذه النَّزْعةَ الطبيعيَّةَ الى الإنسانِ ، ومُحاوَلتِهِ أن يستَخرِجَ منها نتائجَها استخراجاً جميلَ الدِّباجةِ آخِذاً بالألبابِ ، قد اجترأَ على تَوكيدِ أنَّ العامرَ يَتَضاعفون فى كلِّ خمسٍ وعشرين سنة ، وأنَّهم يتكاثرون بين عَقْدٍ وعَقْدٍ من الزَّمَنِ ، تكاثُراً « هَنْدَسياً » على حينِ أنَّ أفضَلَ الوسائلِ الزِّراعيَّةِ أو الصِّناعيَّةِ لإتاء[1] الرِّزقِ لا تكثُرُ إلاَّ فى حَدِّ « النِّسبةِ الحسابيَّةِ »

وقد عَنَى بهاتَيْنِ النسبتَيْنِ « الهندسيةِ » و« الحسابيَّةِ » ما يُمَثَّلُ بالضَّبْطِ فى الصُّورةِ التاليةِ التى أرادَ بها أن يَدُلَّ

---

(١) الإتاء : النموّ كما سبق

على سَيْرِ النُّمُوّ مُتقابلاً بين عددِ الأهلين ومَوادِّ المعيشةِ فى مُدَّةِ قَرْنٍ كاملٍ مُقسَّمٍ الى أربعةِ عقودٍ كلٌّ منها خمسةٌ وعشرون عاماً

السكان	مواد المعيشة
١	١
٢	٢
٤	٣
٨	٤
١٦	٥
٣٢	٦
٦٤	٧
١٢٨	٨
٢٥٦	٩

وعلى هذا فبَيْنا يكونُ ازديادُ السكانِ قد تَمَشَّى من مليونٍ الى مائتين وستة وخمسين مليوناً فى مجرى قَرْنَيْنِ ، يكونُ ما ازدادَ من موادّ المعيشةِ لم يتجاوَزْ النسبةَ التى بين واحدٍ وتسعةٍ

ثُمَّ يَدَّعى ملتوس أنَّ هذه الحَرَكةَ الغالبةَ فى ازديادِ

عددِ السكانِ على ازديادِ موادّ المعيشةِ ، تَصْطَدِمُ فى طريقِها بعَقَباتٍ ينعتونَها بالزَّاجِرَةِ . تلك العقباتُ : هى الشقاءُ ، والحِرمانُ ، والوَفَياتُ قبلَ الاوانِ ، والأوباءُ ، والمجاعاتُ ، والحُروبُ ، وسائرُ الكوارثِ التى يتوالى بعضُها بينَ رَدَحٍ (١) وآخرَ من الدهرِ ، ويَعْمَلُ بعضُها بلاَ انقطاعٍ . وهى آفاتٌ تَكْبَحُ جِماحَ التَّناسُلِ بيَدِ الآلامِ وتحصُرُهُ فى الحيّزِ الذى رَسَمَتْهُ الطبيعةُ

بَعدَ أن عَدَّدَ ملتوس تلك المصائبَ والرَّزايا ، أرادَ أن يُحِلَّ الوِقَايةَ الخياريَّةَ مكانَ الآفاتِ الزَّواجرِ ، فأَشارَ بأن يُرْجِئَ الرَّجلُ زَواجَهُ ؛ فإذا تَزَوَّجَ ؛ فبأن يَعتَدِلَ فى مُباشرةِ أهلِهِ بحيثُ يَجعلُ عددَ بَنِيهِ على قَدِّ (٢) رِزْقِهِ

وبهذا يُحكِمُ السكانُ سَيْرَهُم فيَلْبَثُونَ فى دائرةِ الكَمِّ الذى تَسْمَحُ بهِ أرزاقُهم ويُنقِذُونَ النَّوْعَ البشريَّ من الكوارثِ التى سَبَقَ وَصْفُها

---

(١) الرَّدحُ : حقبة من الدَّهر (٢) القدّ والقَدْر بمعنى

مذهبُ ملتوس لا يَنطبقُ على العالَمِ
فى حالتِهِ الحاضرةِ

عُدَّ مذهبُ ملتوس حقيقةً لا تقبلُ المُنازَعةَ ولاسيَّما فى إنجلترا ؛ حتى إذا جاءَ هذا الرُّبُعُ من القَرْنِ الذى نحنُ فيهِ ، انْتقَضَ ذلك المذهَبُ على نفسهِ بِما ظهرَ من أعاجيبِ النُّمُوِّ فى الفِلاحةِ والصناعةِ والتِّجارةِ ، وَبما انفتحَ فى وَجهِ الجيلِ الأبْيَضِ من الأرَضِينَ المستجِدَّةِ الخِصبةِ ، وَبما أَفضى اليهِ بعضُ الأُممِ : كالفرنسيَّةِ والأمريكيَّةِ الشَّماليةِ المُتاخِمةِ لِلمُحيطِ الأتلنتيكيِّ ، على غيرِ تَوَقُّعٍ منها وبلا تأثيرٍ من المجاعاتِ ، والأَوْباءِ ، والحُروبِ ، إلى وُقوفِ التناسلِ عند أَمَدٍ لا يتخطَّاهُ

مِنَ اليقينِ أنَّ مذهبَ ملتوس لا ينطبقُ على هذا الزَّمَنِ ؛ ولا يَدُلُّ دليلٌ على احتمالِ انطباقِهِ مُدَّةَ قَرْنَيْنِ بل ثلاثةٍ أو تزيد : لأنَّ موادَّ المعيشةِ اليَوْمَ ، إذا نُظِرَ الى مجموعِ الكَوْنِ ، تَسبِقُ النَّوْعَ البشريَّ بِنموِّها وتقدُّمِها

وهذا ما يَشْهَدُ بهِ رُخْصُ المحصولاتِ الشائعةِ الكبرى كالقمحِ ، والشَّعيرِ ، واللحمِ ، والصُّوفِ ، والفاكهةِ ، والزّيوتِ بصُنوفِها الخ

عَدَا أنَّ نِصْفَ العالَمِ — وتدخلُ فيهِ أمريكا بقِسْمَيْها وأُستراليا ، والجينيه الجديدة[١] ، وصُومَطْرَه[٢] وبُرْنيو[٣] وزيلندا الجديدة[٤] ، وشطرٌ كبيرٌ من إفريقيا ، فضلاً عن ثلاثةِ أَرباعِ روسيا ، وعن آسيا الغربيَّةِ — يستطيعُ أن يَمُونَ[٥] الآنَ خمسةَ أضعافِ سكانهِ ، أو عشرةَ أضعافِهم ، بل مائةَ ضِعْفِهم فى بعضِ الأرجاء

---

(١) الجينيه الجديدة La nouvelle Guinée : جزيرة فى أقيانيا شمالى أستراليا (٢) صومطرة Sumatra : جزيرة فى أرخبيل سوند قرب جاڤا عددَ سكانها ثلاثة ملايين ومئتا ألف (٣) بورنيو Bernéo : جزيرة فى أرخبيل سوند مساحتها ستمائة وخمسة وسبعون ألف كيلومتر وعدد سكانها مليونان (٤) زيلندا الجديدة La nouvelle Zelande : جزيرتان فى أقيانيا يفصل بينهما مضيق كوك مساحتهما مائتان وسبعون ألفاً وتسعمائة كيلومتر مربع وعدد سكانهما ثمانمائةٍ وثلاثة وعشرون ألفاً (٥) يمون : يعول

ولقد قُدِّرَ أنَّ تَعدادَ العالَمينَ اليَوْمَ فى الدُّنيا كُلِّها ، لا يَقِلُّ عن مليارَيْنِ ؛ فيكونُ لكلِّ سبعةٍ أو ثمانيةٍ من الهكتاراتِ[1] قاطنٌ واحِدٌ . فَلَوْ بَلَغَ مُتوَسِّطُ سُكانِ الكُرَةِ ما هو بالِغُهُ فى فرنسا : فكان لِكلِّ مائةِ هكتارٍ اثنانِ وسبعونَ من القاطِنين ، أو لِكلِّ هكتارٍ وثمانيةٍ وثلاثين آراً[2] مُقيمٌ واحِدٌ ، لَمَا أضَرَّ بالنَّوْعِ البشريِّ أن يَصيرَ إلى ستةِ أضعافِهِ

نعم إنهُ لا ينبغى صَرْفُ النظرِ عن الصَّحارَى القاحِلَةِ ولكنَّ فى مُقابَلَتِها مساحاتٍ مُمْتَدَّةً تفوقُ فرنسا بِخِصْبِها

ثُمَّ إذا تفكَّرْنا من جهةٍ أُخرى ، فى أنَّ الأرجاءَ التى لم يَتِمَّ عُمْرانُها من الدُّنيا : كالأمريكتين ، وكبعض أفريقيا وكأكبرِ قِسْمٍ من أُقيانيا ، أصبحت ديارَ هِجْرةٍ للجِنْسِ الأُوربيِّ دونَ سواهُ من الأجيالِ الآسيَوِيَّةِ والصِّينيَّةِ

---

(١) الهكتارات جمع هكتار : وهو عشرة آلاف متر مربَّع بحساب الأرض الزراعية Hectare ou Hectomètre

(٢) الآر : يعادل مئة متر مربع Are

والهنديّةِ الخ ، وَجدنا أنَّ شُعوبَ أوربا لا يَحِقُّ لها أنْ تخشى بأساً ، إلى زَمَنٍ طويلٍ ، من مذهَبٍ ملتوس ، ولا من اختلالِ التَّناسُبِ بين تكاثُرِ الأهالِي وتكاثُرِ الأرزاقِ فإنهُ إذا كان هُناكَ خَطَرٌ يُخْشَى ، لم يكُنْ مبدأُ ذلك الخطرِ إلاَّ يَوْمَ تَشْرَعُ الأُممُ الآسيويّةُ ، من صينيّةٍ وهنديّةٍ ، فى الجلاءِ إلى البعيدِ من الأقطارِ ، وفى استيطانِ ما خلا من الأنحاءِ

بل لو أصبحَ هـذا الاستعمارُ الآسيويُّ أمراً واقِعاً ، لكان ما يُصيبُهُ الشُّعوبُ الأُوربيّةُ من المُهلةِ ، رَدَحاً لا يقلُّ عن بِضْعةِ قُرونٍ ، إلى أن يَتِمَّ عُمْرانُ كلِّ بَلْقَعٍ (١) قَفْرٍ من الدُّنيا ، ويَصيرُ مُعَدَّلُ استيطانهِ كمُعَدَّلِ الاستيطانِ فى البُلدانِ المعمورةِ من قَبْلُ

فَمَا دامت عِدَّةُ سكَّانِ الدُّنيا لم تَصِلْ إلى هذا المتوسِّطِ ثابتاً ، فَمِنَ السَّهْلِ على مُهاجرى الدِّيارِ القديمةِ أن يَجِدُوا لَهُم مُتَّسَعاً فى الأقاليمِ الجديدةِ التى لم يتمَّ عُمرانُها ، ومن

---

(١) بلقع : غير معمور ولا منتفع بهِ

السَّهْلِ أيضاً على هذهِ البُلدانِ الجديدةِ أنْ تبعثَ إلى الأمصارِ القديمةِ بفُضُولِ مُنتجاتِها الغِذَائيَّةِ ، لاستبدالِ الأشياء المصنوعةِ بها

على هذا ينتفى الخَوْفُ مما أَنْذَرَ بهِ ملتوسُ ، إلى عِدَّةِ قُرونٍ ؛ وقد نقولُ الى آخرِ الدَّهرِ : فقد ثبَتَ من جهةٍ ، أنَّ طرائِقَ الفِلاَحةِ فى العالَمِ المُمَدَّنِ ، لا تزالُ على نَقْصِها الأوَّلِ ؛ فإذا تكاملَتْ على ما يقتضيهِ العِلمُ زَكَتْ [1] المحصولاتُ فيها ، ولاسيَّما الحُبوب ، ضِعفَيْ ما تزكو الآنَ أو ثلاثةَ الأضعافِ

وقد ثبَتَ ، من جهةٍ أُخرى ، بِمَثَلِ فرنسا ، وسويسرا ، والقِطْعةِ المُتاخمةِ لِلمُحيطِ الأتلنتيكيِّ المُسمَّاةِ بإنجلترا الجديدةِ [2] من الولاياتِ المتَّحدةِ الأمريكيَّةِ ، أنَّ التَّناسلَ يَضْعُفُ كثيراً بِفِعلِ الرَّخاءِ وتحتَ تأثيرِ الشُّعورِ

---

(١) زكت : نمت وربَّعت أى ازدادت

(٢) اسم هذه الولاية الامريكية بالفرنسية :

La Nouvelle Angleterre

العِصاميّ [١] . ومِمَّا يُحْتَمَلُ حُدُوثُهُ ، ولا دليلَ يَدُلُّ على نقيضهِ ، أنَّ سائِرَ بُلدانِ الدُّنيا صائِرَةٌ مَصيرَ فرنسا من حيثُ تَناقُصُ السكانِ وَوُقوفُ سَوادِهِم [٢] عند حَدٍّ لا يكادُ يَتَعَدَّاهُ

ما يتأتى من الآفات عن سرعة تكاثر الأهلين في بَلدٍ ما

إذا حَسُنَ أَلاَّ يُؤْخَذَ بمذهب ملتوس من حيثُ تقريرُهُ عَدَمَ التَّوازُنِ بين نُمُوِّ السكانِ وتَوافُرِ الموادِّ المَعاشيَّةِ ، فَمِمَّا لا شُبْهَةَ فيهِ ، أنَّ سُرْعَةَ ازديادِ الأهلينَ في البَلَدِ الذي لا تَتَفاقَمُ [٣] رُؤُوسُ أموالهِ ولا تَنْفُقُ مصنوعاتُهُ بمُعَدَّلِ تلك السُّرْعةِ ، يَقَعُ مَعَها من المحذوراتِ على طَبَقَةِ الفَعَلَةِ ما ليسَ باليسيرِ

---

(١) العصاميّ : قدمنا أننا نريد بهِ الذي يقراطيّ لأن كل امرئ يسود بنفسه ويكتسب الحسب بكدّه يكون ذيمقراطيًّا بطبعه ولو تشبه بالعظاميين (٢) سوادهم : جمعهم (٣) تتفاقم : تكثر وتتعاظم

بِدَليلِ المُشَاهَدِ فى بلچيكا وفى بعضِ أنحاء إيطاليا وفى عِدَّةِ أماكنَ ألمانيَّةٍ : منهـا السَّكْسُ [١] وخُصوصاً سيليسيا [٢] ؛ فإنَّ العَملةَ فيها تَعَدَّدوا بِما لم يتوافَقْ معهُ تعدُّدُ رؤوسِ الأَموالِ ولا تعدُّدُ الاسواقِ الخارِجيَّةِ التى تَرُوجُ فيها مصنوعاتُ تلك البلادِ ، فَنَجَمَ عن ذلك هُبوطٌ فى الأجورِ وَرِقَّةٌ فى حالِ الصُّناعِ

وليسَ للفاقةِ ولا للشَّقاء الذى يُكابِدُهُ عُمَّالُ بعضِ الأَرجاء فى إيطاليا وبلچيكا وألمانيا من سببٍ سوى هذا السَّبَبِ

أمَّا إنجلترا ، فَعَدَمُ تأثُّرِها من نتائجِ الفرقِ بين نَمَاءِ السكانِ وإِتاء [٣] رؤوسِ الأموالِ وَرَوَاجِ المصنوعاتِ ، إنَّما هو ناجمٌ من كَوْنِها قد أَلِفَتْ مُرَاكَمةَ [٤] المقاديرِ الطَّائِلةِ من رؤوسِ الأَموالِ ، ومما لها من السَّبْقِ على غيرِها

---

(١) السكس مقاطعة بألمانيا La Saxe (٢) سيليسيا كذلك La Silésie (٣) الإتاء : النماء والتربيع كما سبق

(٤) المراكمة : الجمع والتكديس

فى مَيْدَانِ التِّجارةِ ، ومن السَّعةِ الاستعماريَّةِ التى تُوجِدُ لمَصنوعاتِها نَفاقًا مُستمِرًّا فى أسواقٍ خارجيَّةٍ

المهاجرةُ والاستعمارُ

لا ينبغى إذًا أن يُحمَلَ الناسُ على المُناسَلَةِ بلا تَدبُّرٍ ولا تَبَصُّرٍ فيكونَ شأنُهم شأنَ الجماهيرِ التى أشَرْنا إليها من سكانِ إيطاليا وألمانيا وبلچيكا

فإذا وَقَعَ مِثْلُ هذا الإفراطِ فى التَّناسُلِ فلا بُدَّ من الهِجْرَةِ الى البُلدانِ المستجدَّةِ

وما الهِجرةُ سوى حادثٍ نافعٍ يُخلِّصُ المعمورَ القديمَ من فُضولِ سكانِهِ لِأَجَلٍ مُسَمًّى أو لِأَجَلٍ غيرِ مُسَمًّى ؛ ويَحمِلُ الى المعمورِ الجديدِ أكبرَ ما يَحتاجُ اليهِ من قوَّةِ السَّواعِدِ

غيرَ أنَّ الهِجرةَ لا تكونُ حَسَنَةَ العائِدَةِ إلَّا إذا كان النَّازِحون[1] شَبَابًا شِجْعَةً[2] مُواظِبين ، راغبينَ فى العملِ

---

(١) النازحون : المهاجرون (٢) شجعة : جمع شجاع

اليَدَويّ لا مُستخدَمين ولا سَفرَةً [١] يَغْتَرِبُونَ فى طلَب أرزاقٍ تُجرَى عليهم فى مُقابَلةِ تَبوُّئِهم مَقاعِدَهم كما يَقعدُ أمثالُهم فى مَواطِنِهم الاصليَّةِ وقد أَرْبَوْا على كلّ حاجةٍ

على أنَّ كلّ حكومةٍ تستطيعُ أن تُهَيِّئَ لِلهجرةِ أَرضاً خاصَّةً تجعلُها أَرضاً وَطنيَّةً : فيكونُ فِعْلُها ذاكَ هوَ الاستعمارُ

وَقِوَامُ الاستعمارِ أنْ تُوضَعَ بِقَاعٌ مُقفِرَةٌ أو قليلةُ العُمرانِ هَمجيَّةُ السكانِ تحتَ تصريفِ شَعْبٍ حَضَرِيٍّ غَنيٍّ بالمالِ والرِّجالِ

فإذا استَحْوَذَت دَوْلةٌ حَضَريَّةٌ على بقاعٍ تلك صِفَتُها لم تأتِ إلاَّ عملاً مشروعاً . وهذا العملُ إنْ أُحْسِنَتْ إدارَتُهُ، كان من أَنفعِ الأَعمالِ التى يقومُ بِها المجتمَعُ الأُوربيُّ

غيرَ أنَّ الاستعمارَ يتطلَّبُ من الذين يَتَصَدَّونَ [٢] لهُ

---

(١) السفرة جمع سافر : طائفة الكتاب ومستخدمي المكاتب Employés de bureau = Commis

(٢) يتصدون لهُ : يتعرَّضون وينتدبون

رَصانةً [١] فى الفِكرِ ، ومَتانةً فى مقاوَمةِ بَواعِثِ الشَّرِّ ، ومُثابَرَةً لا يذهَبُ بها طولُ الأيّامِ

وأيَّةُ أُمَّةٍ سارَت هذا السَّيْرَ ، لم تَلْبَثْ بعد متاعبِ البدَاءةِ وتَكْلِفاتِها أنْ تُصيبَ عِوَضاً كريماً ، مُتَنَوِّعَ الأشكالِ ، عمَّا تكونُ قد تَحَمَّلَتْهُ فى هذا السبيل

الأقاليمُ التى لا يتكاثرُ سكانها

أخطارُ هذه الوَقفة

إذا كانَ مِن البُلدانِ ما يزدادُ سكانُهُ الى ما وَراءَ حاجتِهِ ، فَمِنْها — فى هذهِ الأيّامِ — ما لَزِمَ حدّاً لا يَعْدُوهُ : كفرنسا مثلاً . فإنَّ الوَفياتِ فيها قد فاقت المَواليدَ بِمُتَوسِّطٍ سَنَويٍّ من عشرةِ آلافٍ الى أربعينَ ألفاً فى الأعوامِ الخمسةِ التى هى : ١٨٩٠ و ١٨٩١ و ١٨٩٢ و ١٨٩٥ و ١٩٠٠

---

(١) رصانةً : تأنياً وركانةً

فأمَّا فى العَشَرَةِ الأَعوامِ التى خلَتْ من سنة ١٨٩٥ إلى ١٩٠٤، فلم تكُنْ عِلاوةُ المواليدِ على الوَفيَاتِ إلاَّ خمسمائةٍ وتسعةَ آلاف وسبعمائةٍ وخمسةَ عَشَرَ أى بمُتوسِّطِ خمسين ألفاً فى السنةِ؛ وهذا المُتوسِّطُ يُضافُ إليهِ بضْعُ عشراتِ الآلافِ، عُمالاً أم مُموَّلينَ، يَتوافَدُونَ فى كلِّ حَوْلٍ للتَّوَطُّنِ فى ديارِنا

إذا تبيَّنْتَ هذا فإليكَ مُعَدَّلَ السكانِ فى أهمِّ الأَقاليم الأُوربيَّةِ :—

يَقْطُنُ الكيلومترَ المربَّعَ فى فرنسا اثنان وسبعون نفساً

وفى ألمانيا — على أنَّ تُرْبَتَها لا تُعادِلُ تُرْبَتَنا وإن كانَ عندها من المعادنِ ما ليْسَ عندنا — مائةٌ وعَشَرَةُ أنفُسٍ؛

وفى إيطاليا — التى لم تستكمِلْ الى الآن زِراعةَ كلِّ مكانٍ فيها والتى لا تزالُ فِئةٌ من أهليها فى نهايةِ الشَّقاءِ — مائةٌ وعشرةُ أنفُسٍ أيضاً

وفى بريطانيا العُظمى وإرلندا — اللَّتَيْنِ هُما عِبارةٌ

عن مَعْمَلٍ فسيحِ الارجاءِ وحانوتٍ لِلبَيْعِ والشِّراءِ — مائةٌ وخمسةٌ وثلاثون نفساً

وفى إِنجلترا بالذَّاتِ ؛ مائتانِ أو يُنيفُونَ

وفى هولندا — ذات التجارةِ الواسعةِ — مائةٌ وستون

وفى بلچيكا — ذاتِ الصناعةِ الراقيةِ والكنوزِ المعدنيةِ — مائتان وثلاثون أو يزيدون

من هذا البيان يَتَّضِحُ أنَّ العددَ الذى يستطيعُ الإقليمُ أن يَعُولَهُ من سكانهِ، لا يَرْتَبِطُ بِمَساحةِ أرضهِ دون سِواها ولا بامتدادِ التُّرْبةِ وَجَوْدَتِها معاً ؛ بل بِكِلْتَيْهِما وَبما فى باطنِ الأَرضِ من المعادنِ التى رُبَّما تفاقَمَتْ تَفاقُمَها فى بلجيكا وإِنجلترا وأَرْجاءٍ من ألمانيا ، فَجَعلت لِلبلدِ الواحِدِ أَرْضَيْنِ لا أَرضاً واحدةً ، وزادتِ الإِنتاجَ الوطنيَّ زيادةً طائلةً

ومِمَّا يُعينُ البَلَدَ على نُمُوِّ سكانهِ بِما يفوقُ نُمُوَّهُم فى غَيْرِهِ : أن تكونَ لهُ شُطآنٌ بَحْرِيَّةٌ فَيَنْصَرِفُ فريقٌ من أهلهِ الى صَيْدِ الاسماكِ، وتتعدَّدُ فيهِ السَّفائِنُ ويَتَّسِعُ ما

تَسْتَتْبِعُهُ من الحركةِ ، وتمتدُّ تجارتُهُ الى الأسواقِ النائيةِ

فإذا نظرنا الى الحالةِ الحاضِرَةِ فى المعمورِ كان السِّيِّئُ أن ينْحَبِسَ عددُ السكانِ عن المزيدِ فى بلدٍ من البُلدانِ :

أمَّا أوَّلاً فلأنَّ هذا الوُقوفَ يَدْفَعُ البلدَ فى هاويةِ الضَّعْفِ السِّياسيِّ تُجاهَ مُناظريهِ الذينَ يَكثُرُونَهُ (١) باستمرارِ النُّموِّ فى عددِ سكانِهم دونَهُ

ولا يَدُلُّكَ على آفاتِ هذا الضَّعْفِ السِّياسيِّ فى الشُّعوب كَعِلْمِكَ أنَّ مَنْ ابْتُلِيَ بهِ منها أُصيبَ فى كرامتهِ وفَقَدَ من إعجابِ الآخَرينَ بهِ — ولَوْ كانَ إعجابُهم بغَيْرِ حَقٍّ أو مُجاوِزاً لِلمعقولِ — ما هوَ خَيْرُ جَلَّابٍ لِلرِّضى عن مصنوعاتِ ذلك الإقليمِ والإقبالِ على أزيائهِ

وأمَّا ثانياً فلأنَّ المَوْطِنَ الذى لا يتزايدُ أهلوهُ لا يَنْزِحُ عنهُ من أبنائهِ مَنْ يَحمِلُ الى البِقاعِ البعيدةِ عاداتهِ وأذواقَهُ ولُغَتَهُ : وهىَ أنفَعُ أدواتِ الوَصْلِ بينَ المَوْطِنِ الذى

---

(١) يكثرونهُ : أى يغلبونهُ بالكثرةِ وهو فِعْلُ الغَلَبَةِ من كاثَرَهُ بمعنى غالَبَهُ بالكثرةِ

يُفارِقُهُ النّازِحونَ والدّيارِ التى يَجْلُونَ [١] إليها

على أنَّ المُهاجِرينَ هُم خَيْرُ السُّفّارِ [٢] المُرَوِّجينَ لِتجاراتِ ديارِهم

أُنْظُرْ إلى الألمانيّين الذين تَرَحَّلوا عن مَسْقَطِ رؤوسهم وانْبَثُّوا فى أطرافِ الدُّنيا ، فَقَدْ كانوا السببَ الأكبرَ فى ما بَلَغَتْهُ أُمَّتهم من التقدُّمِ التجاريِّ العظيمِ

وأمّا ثالثًا فلأنَّ الشَّعْبَ الذى لا يَنمو تُفْضى بهِ الحالُ الى التَّخَدُّرِ والتأنُّث [٣]

والواقعُ أنَّ الأُسَرَ إذا قَلَّ أولادُها رَبَّتْهُم تَرْبيَةَ حَنانٍ وخَوْفٍ تُضْعِفُ بهما فضيلةَ الجُرأةِ عندهم وتُنَحِّفُ أخلاقَهم وعُقولَهم ؛ كما أنَّ الرِّجالَ، فى أُمَّةٍ هذه صِفَتُها ، يُصْبِحُونَ كارِهينَ للصناعاتِ الشّاقّةِ والأعمالِ الطويلةِ الآمادِ غيرِ

---

(١) جلا وأجلى : نزح . ومنها لفظة الجالية التى أطلقت على الأجانب المقيمين فى بلدٍ ليس بلدهم Colonie (٢) السُّفار والسَّفْرُ : المسافرون (٣) التأنث : الصيرورة على حالة تشبه الأنوثة

المُسْتَحَبَّةِ، وتَنْثَلِمُ [١] فيهم الفِطنةُ المُبْدِئةُ [٢]

فَمَا يُقِيلُ هذه الأُمَّةَ المُثْرِيَةَ المُنَعَّمَةَ من عَثْرَتِها ولا يَنْهَضُ بها من ضَجْعَتِها إلاَّ النُّزَلاءُ الأَجانِبُ يتوافدونَ اليها من الأمصارِ الضَّائِقةِ بأَهْلِها

ولقد بلغَ تَعدادُ الغُرَباءِ المُقيمينَ فى فرنسا إلى هذا اليَوْمِ مليوناً ومائةَ ألفِ نَسَمةٍ

فكلُّ شَعبٍ أُصيبَ بِمِثْلِ ما أُصيبت بهِ فرنسا من ضَعْفِ التَّناسُلِ، فَلَيْسَ بِواجِدٍ أفضلَ من تلك العناصرِ الغريبةِ لِدَفْعِ ما يَنْتُجُ عن ذلك الضَّعْفِ من وَخيمِ العواقب

الفاقَـةُ

بارِقةُ الأملِ بتناقُصِ الفقراءِ

تنضمُّ إلى مسألةِ السكانِ مسألةٌ أُخرى ذاتُ بالٍ: وهى الفاقةُ. ففى كلِّ بلدٍ وفى كلِّ طبقةٍ من طبقاتِ

---

(١) تنثلم: يتفلَّل حدّها (٢) الفطنة المبدئة: قدَّمنا أنها تعريب لفظى Esprit d'initiative

الاجتماعِ يُوجَدُ فِتْيانٌ ويُوجَدُ مُعَيَّلُونَ [١] لا يتسنَّى لهم الحُصولُ على الكِفافِ [٢] يسطو بهم الفَقْرُ ، والفَقْرُ نازِلةٌ عَمْياءُ لا تَنْظُرُ كيفَ تَضْرِبُ ولا تُبقي [٣] على جماعةٍ كبيرةٍ من العالَمين

هكذا كانَ فِعْلُها منذُ مبدإِ التاريخِ ، ولهُ آثارٌ تَدُلُّ عليهِ : أَظْهَرُها تَواتُرُ الآياتِ الوارِدَةِ فى التَّوْراةِ بِخُصوصِ البائِسين [٤]

وَلِلفاقةِ عِلَلٌ شتَّى تجتمعُ فى ثلاثٍ كُبَرٍ :

العاهاتِ الأصليَّةِ

الإِصاباتِ العَرَضيَّةِ

النَّقائِصِ الطبيعيَّةِ فى الإِنسانِ

---

(١) مُعيّلون : أربابُ عيال (٢) الكفاف بكسر الكاف : أدنى القوت . والكفاف بفتح الكاف : ما يُغنى عن الناس (٣) أبقى عليهِ استبقاهُ ورَحِمهُ (٤) الآيات التى نزلت فى القرآن بالدعوة الى الاحسان والوُصاة بالبائسين دليل آخر على صحة هذا القول الذى استشهد لهُ المؤلف بالتوراة (المعرّبان)

يُولَدُ أُناسٌ ضِئالاً نُحفَاءَ ، أو فاقدين لِبَعْضِ الأعضاء لا حَوْلَ لهم ولا ذكاءَ ، فَيَعِزُّ عليهم كَسْبُ ما يُمْسِكُونَ بِهِ الرَّمَقَ ، وإذا لم تُقَيِّضْ لهم العِنَايَةُ ذوى رحِمٍ وشَفَقَةٍ يَعُولُونَهم أو يُعينونَهم ، ماتُوا إعداماً [١] أو أقاموا عِيالاً على المجتمعِ

ويُصَابُ أُناسٌ آخرونَ بأعراضٍ بَدَنِيَّةٍ قاتِلَةٍ أو مُقْعِدَةٍ عن العملِ فَيَتْبَعُها الفقرُ : كان يَحُلَّ القَضَاءُ فى عاملٍ ذى عِيْلَةٍ ، فَيَمُوتُ عن امرأةٍ وَذَرَارِيَّ صِغارٍ أو عن أطفالٍ أيْتَمَتْهم أُمُّهم من قَبْلُ ؛ فلا يتسنَّى لهؤلاءِ المستضعفين أن يقوّموا أَوَدَ أنفُسِهم حتى يكبَروا

وأشَدُّ مِنَ العِلَّتَيْنِ الآنِفَتَيْنِ مَجْلَبَةً لِلْبُؤْسِ النَّقائِصُ البَشَرِيَّةُ : فإنَّ كَسَلَ الجسمِ ، وَخُمُودَ [٢] العقلِ ، والإصرارَ على التبذيرِ ، وإدْمَانَ المُعَاقَرَةِ [٣] وسُوءَ الخُلُقِ الذى يُفضى

---

(١) إعداماً : فقراً (٢) الخمود : زوال قوّة النار وقرب انطفائها (٣) إدمان المعاقرة : الاستمرار على تعاطى الخمور

بِصاحبِهِ الى الإبعادِ عن الخدمةِ ، والتماديَ فى النَّزَقِ [١] وعدمِ الاكتراثِ لِشَيْءٍ ، كلُّ أولئك مما يصيرُ بالنَّاسِ الى الخَصَاصةِ [٢] والشقاء

فإذا عَظُمَ فى مُجتمعٍ سوادُ البائسينَ سُمِّيَ ذلك بالفاقةِ الشَّائعةِ

ومِنَ الناسِ مَنْ يَظُنُّ أنَّ الفاقةَ الشائعةَ — أى وُجودَ طبقةٍ من الفُقراء عن إِرثٍ — كارثةٌ خُصَّتْ بها المجتمعاتُ الشَّاهِدَةُ ؛ ويقولُ إنَّ الصناعةَ الكبرى هىَ التى خَلَقَتْ تلك الفاقةَ وأحدثت ذلك الجُرْحَ الأليمَ الذى هو جِزْيةُ نَجاحِنا وعِقابُ فَلاحِنا

هذا الزَّعمُ غيرُ صحيحٍ وغيرُ مَبنيٍّ على جِدِّ استقراءٍ

إنَّ إنجلترا ، وهىَ اكثرُ بِلادِ اللهِ صِناعةً ، لا يبلُغُ عددُ الفقراءِ فيها مَبْلَغَهُ فى أقاليمَ أُخرى لم تفتأ العيشة فيها

---

(١) النزق : عدم استقرار الخلق وتسميه العامَّة بالطيش

(٢) الخصاصة : الفقر ورِقَّة الحال

أشبَهَ بالعيشةِ الفِطريّةِ الأُولى : كنروج[١]، وباڤاريا[٢] وجنوب إيطاليا

ففى سنة ١٩٠٨ كانَ البائسونَ فى بريطانيا العُظمى وإرلندا بنسبةِ مائتَيْنِ وخمسةٍ وخمسينَ إلى كلّ عشرةِ آلافٍ من السكانِ، أيْ بنسبة اثنين وخمسة وخمسين إلى المائةِ ؛ على حينِ أنّهم كانوا فى نروج بنسبةِ سبعةٍ إلى المائةِ ، وفى أسوج بنسبة أربعة وخمسة وعشرين الى المائةِ وفى باڤاريا بنسبة ثلاثة واثنين وعشرين الى المائةِ

ثمّ إنّ المتوسّطَ الذى ذكرناهُ عن إنجلترا قد أخذَ بالتّناقُصِ منذُ نِصْفِ قرنٍ : فبَعْدَ أن كان من سنة ١٨٤٩ الى سنة ١٨٥٨ ، أربعة وسبعة وستين فى المائة ، هبط الى أربعة وواحد وستين فى المائة بين سنة ١٨٥٩ وسنة ١٨٦٨ ثمّ الى ثلاثة وواحد وثمانين فى المائة بين ١٨٦٩ و١٨٧٨ ، ثمّ الى ثلاثة وكسرٍ فى المائةِ، ثم الى اثنين وخمسة وخمسين

---

(١) نروج : مملكة فى شمال أوربا La Norvège

(٢) باڤاريا : احدى ممالك ألمانيا La Bavière

فى المائةِ سنة ١٩٠٨ كما رأينا

فالنجاحُ الذى تَمَّ كان مُتَّصِلاً عظيماً

أمَّا المتوسِّطُ فى فرنسا فبنسبةِ واحدٍ إلى ثلاثةٍ وعشرين وهو اكبرُ منهُ فى إنجلترا. على أنَّهُ قد أخذَ بالانخفاضِ منذُ ابتداءِ القرنِ التاسعَ عشرَ

مما تقدَّمَ يثبتُ أنَّ الفاقةَ لم يتَّسعْ نِطاقُها فى الأممِ المُمدَّنةِ، بل ضاقَ بمقدارِما انتشرت الصناعةُ، وانكسرت حِدَّةُ الآلامِ التى كانت تُعانيَ من الفقرِ

فلَسْتَ بواجدٍ فى أُوربا الغربيَّةِ اليومَ ما كُنْتَ تَشهَدُهُ فى القُرونِ الوُسطى ولا ما تستطيعُ أن تراهُ فى الصّينِ والهند والجزائر من الشُّعوبِ التى تَجتاحُها [1] بأسرِها المجاعاتُ والأوْباءُ فيَهلَكُ منها مئاتُ الألوفِ أو بِضعة الملايين

كما أنَّ تلك السَّحائِبَ من عَصائِبِ الشَّحَّاذِينَ الذينَ كانوا يَملأونَ جَوانِبَ أوربا قديماً قد بادت أو كادت

---

(١) تجتاحها : تغتالها جماعاتٍ و بلداناً

لا جرَمَ أنَّهُ يُرْجى تخفيف وَيْلاتِ الفاقةِ مع التمَادى ولكنَّهُ لا يُرْجى البتَّة زَوالُها . فإذا أُقيمَ ما شاءَ اللهُ من مَعاهِدِ الخيْرِ كالبيمارِستاناتِ وَمَلاجيءِ العُمْيانِ والصُّمِّ البُكْمِ فلَيْسَ فى تشييدِها ما يُقَلِّلُ سَوادَهم ، وإنْ كانَ فيهِ بلا رَيْبٍ ما يُصْلِحَ حالهم بعضَ الشيءِ ويُقَيِّضُ لِفئةٍ منهم كَسْبَ مَعايشِهم

ومِمَّا يُعينُ ، مع كَرِّ الأيَّامِ ، على نُقْصانِ الشقاءِ أو دَفْعِ البَلاءِ الذى يتأتَّى من الإصاباتِ العَارِضةِ أو من المَعايبِ الإنسانيةِ الثَّانَوِيَّةِ كالنَّزَقِ وعدمِ الاكتراثِ ، جمعيَّاتُ المُبارَّةِ ، وصناديقُ الادّخارِ ، وأنواعُ التأمينِ ، وصُنوفُ المنشوراتِ التى تُحَضُّ بهـا العامَّةُ على التبصُّرِ ، وحُسْنُ التأديبِ والتربيةِ

غيرَ أنَّ هُنالكَ نَوْعاً من الفاقةِ يأبى كلَّ دَواءٍ اجتماعيٍّ ويَعصى كلَّ طبيبٍ : ذلك هوَ الفقرُ الناجمُ من نَقائِصِ الإنسانِ : كالبَلادَةِ اللازِبةِ ، وسُوءِ السِّيرَةِ ، والتبذيرِ ، وإدمانِ الخمرِ إلى ما يُشاكِلُها من المَثالبِ التى لا سُلطانَ

عليها لِمَجهوداتِ الذينَ يُقاتلونهـا رِفقاً بِمنكوبيها ؛ وَلنْ يَتوَصَّلَ الناسُ إلى إزالتِها بل رُبَّما أزالوا منها بعضَ الشيء

لهذا صَدَقَ مَنْ قال « لا بُدَّ من وُجودِ الفقراء بينكم »

فالذى ينبغى عَمَلُهُ إذاً هو ألاَّ يُوجَدَ من البائسينَ فى كلِّ أُمَّةٍ إلاَّ الجانون على أنفُسِهم

الصَّدَقةُ القانونيةُ والصَّدَقةُ الخاصةُ

أُتُّخِذَت طريقتان لِمُقاتَلةِ الفاقةِ :

الصَّدَقةُ القانونيَّةُ . والصَّدَقةُ الخاصَّةُ

الأُولى مِنهما ، وَتُدْعى أيضاً بالإداريَّةِ ، هىَ التى تَعْرِفُ للفقيرِ حَقّاً غيرَ مَمْنونٍ[1] على المجتمعِ ، وتخلُقُ مَعاهِدَ مَوْضِعيَّةً أو وَطَنِيَّةً لِعَوْلِ البائسين ، وتَفْرِضُ الإتاواتِ لِتُوَزِّعَ عليهم الإحسانَ

فَبِئسَت الطريقةُ هذهِ ولا أساسَ لها مِن العَدْلِ : لأنَّ الفقراءَ ، وأخَصُّهم الجانونَ على أنفُسِهم وهُم السوادُ

---

(١) غير ممنون : غير مجحود

الأعظمُ منهم ، لا حقَّ لهم على المجتمعِ ، ولا يَجوزُ لأحدٍ أن يتقاضاهُ لهم

فَمَنْ جعَلَ الصَّدَقةَ القانونيَّةَ ضامنةً للفقيرِ مأكلَهُ ومنزِلَهُ وملْبَسَهُ ، بِصَرْفِ النظرِ عن سيرَتِهِ ، فكأنَّهُ يَحدو الناسَ على الكَسَلِ والسَّفَهِ ؛ بل كأنَّهُ يُجيزُ (١) على العُيوبِ ويُثيبُ (٢) على الذُّنوبِ

أمَّا الصَّدَقةُ الخاصَّةُ القائمةُ على مُؤَسَّساتٍ خيْريَّةٍ مُتَوارَثةً جيلاً بعدَ جيلٍ ، أو على التبرُّعاتِ التى يُوَاليها الناسُ باختيارِهم ، فهِيَ الطريقةُ المُثْلَى العادِلةُ أصلاً والنافِعةُ فِعْلاً ؛ سوى أنَّهُ يَجْدُرُ بالذين يتولَّوْنَها أن يَحرِصوا كلَّ الحِرْصِ من تَهْوينِ متاعبِ الحياةِ على الذينَ لم يمسسْهُمُ الفقرُ إلاَّ بإرادتِهم

كما أنَّهُ يَنبغى عليهم أن يَعملوا على إزالةِ أسبابِ الفاقة، وعلى إقالةِ البائسِ العاثرِ فى عينَيْ كرامتِهِ، والتَّفادِى (٣)

---

(١) يجيز أى : يعطي الجوائز (٢) يثيب : أى يكافئ

(٣) التفادى : الامتناع

من المُغالاةِ التى تُسَهِّلُ الخَصاصَةَ على أصحابِ الأخلاقِ الدَّنيئةِ والنُّفوسِ الوَضيعةِ

فإنهُ إذا كان وَضْعُ الإحسانِ فى مَوْضعهِ أَكرَمَ شىءٍ على اللهِ والناسِ ، وهو فى الواقع أَنْدَرُ ما يكون ؛ فلا شىءَ أشدُّ إضراراً وأَوْخَمُ عاقبةً مِن وَضْعِ الإحسانِ فى غيرِ مَوْضعهِ

ملحق بالفصل الثالث

تذييلٌ للطبعةِ الثالثةَ عَشْرَةَ

التناقص المستمر فى المواليد بفرنسا — مخاوف الاقواء[١] — ما يجب عمله لتأييد النسل الفرنسيّ

أَشَرْنا منذُ انتشارِ الطبعةِ الأُولى من هذا الكتابِ سنة ١٨٨٧ إلى المحذوراتِ الخطيرةِ التى يتعرَّضُ لها ، فى الحالةِ الدُّنْيَوِيَّةِ الرَّاهِنةِ ، كلُّ قَوْمٍ يَقِفُ التَّناسُلُ فيهم عند حَدٍّ لا يتخطَّاهُ ، كوُقوفهِ فى فرنسا لذلك العهدِ

فكيْفَ بنا وقد رأَينا تلك العِلَّةَ تمتدُّ وتشتدُّ من ذلك الحينِ ؛ إذ أَخَذَ مُتَوَسِّطُ المواليدِ يتناقَصُ تَناقُصاً رائِعاً مُطَّرِداً حتى جازَ لنا أن نتساءَلَ : هل يكونُ الشَّعْبُ الفرنسيُّ حياً فى القرنِ الواحدِ والعشرينَ والقرنِ الثانى والعشرين أم يكونُ قد أَتَمَّ انْحِدارَهُ وضحا ظِلُّهُ[٢]

---

(١) الإقواء : إقفارُ البلد من سكانهِ Dépopulation

(٢) ضحا ظلهُ : هلك

أجَلْ ، إنَّ الشعبَ الفرنسيَّ لَيَنْتَحِرُ بلاَ مَراءٍ ، بل هو يَجنى جِنَايَتَيْنِ معاً : على نفسهِ وعلى وَطَنِهِ . وقد أَنذرْناهُ هذهِ الحقيقةَ الأليمةَ وما زِلْنا نُنْذِرُهُ إِياها منذُ عشرينَ سنةً كأَنَّنا صارِخونَ فى وادٍ

أمَّا الزَّواجُ فى فرنسا فَمَا بَرِحَ مُتوسِّطُهُ كمُتوسِّطِهِ فى الأقاليمِ الأخرى ولكنَّ النَّسْلَ يُوشِكُ أن يَنْقَطِعَ

ولقد عُدَّ فى سنة ١٩٠٩ حدوثُ ثلاثِمائةٍ وسبعةِ آلافٍ وتسعمائةٍ وواحدٍ وخمسينَ قِراناً مِمَّا يبلغُ مُتوسِّطُهُ سبعةً فى الألفِ وخمسةً وثمانين من الواحدِ ، فهوَ أقلُّ مِمَّا كان فى الأعوامِ السابقةِ بشيءٍ يَسيرٍ ، ولكنَّهُ غيرُ بعيدِ الفرقِ عن مِثْلِهِ فى سائرِ الأقطارِ الأُوربيَّةِ الغربيَّةِ

وفى هذه الأيَّامِ أُلْغِيَتْ طائفةٌ من التكاليفِ[1] التى كانَ يَستلزِمُها عَقْدُ الزَّواجِ بِغَيْرِ طائلٍ فازدادت بإلغائِها سُهولةُ التأهُّلِ

---

(١) التكاليف : نعنى بها المؤونة والنفقة اللتين تنتجان عما ترسمهُ الحكومة من الصيغ لإتمام العقد

فالعِلَّةُ إِذاً ليست فى جانبِ التأهُّلِ بل فى جانبِ النَّسْلِ ، وناهيكَ بها مِنْ عِلَّةٍ

فإنَّ عددَ المواليدِ، من جهةِ نِسبتِهِ إِلى مجموعِ السكانِ، قد نَزَلَ نُزولاً مُستمرًّا منذُ قرنٍ على التقريبِ؛ ومن جهةِ نِسبتِهِ إِلى نفسِهِ وسَوابقِهِ، قد أَخذ بالنّزولِ أَيضاً منذُ أُخْرَيَاتِ السِّنِين التى عاشَتْها الأمبراطوريَّةُ الثانيةُ (١٨٦٦ — ١٨٦٩)

وإِليْكَ جدولاً مُفَصَّلاً استقرينا فيهِ تلك الحركةَ الرَّهيبةَ

المواليدُ فى فرنسا

تعداد السكان بالملايين		الزواج فى الالف	المواليد فى الألف	الوفيات فى الألف	زيادة المواليد والوفيات فى الألف
السنون	السكان				
١٨٠١	٢٧,٤	١٩٨	٩٠٣	٧٦١	١٤٢
١٨٠٦	٢٩,١	٢٠٩	٩١٦	٧٨١	١٣٥
١٨١٠	٢٩,٦	٢٣٢	٩٣١	٧٣٠	٢٠١
١٨١٥	٢٩,٥	٢٤٦	٩٥٣	٧٦٢	١٩٠
١٨٢١	٣٠,٤	٢٢٢	٩٦٥	٧٤١	٢٢٤

تعداد السكان بالملايين		الزواج في الالف	المواليد في الألف	الوفيات في الألف	زيادة المواليد والوفيات في الألف	
السنون	السكان					
١٨٢٦	٣١,٨	٢٤٧	٩٩٢	٨٣٧	١٥٤	
١٨٣١	٣٢,٥	٢٤٥	٩٨٦	٨٠٠	١٨٦	
١٨٣٦	٣٣,٥	٢٧٤	٩٧٩	٧٤٧	٢٣٢	
١٨٤١	٣٤,٢	٢٨٢	٩٧٦	٧٩٤	١٨١	
١٨٤٦	٣٥,٤	٢٦٨	٩٦٥	٨٢٠	١٤٤	
١٨٥١	٣٥,٧	٢٨٦	٩٧١	٧٩٩	١٧٢	
١٨٥٦	٣٦,١	٢٨٤	٩٥٢	٨٣٧	١١٥	
١٨٦١	٣٧,٣	٣٠٥	١٠٠٥	٨٦٦	١٣٨	
١٨٦٦	٣٨,٠	٣٠٣	١٠٠٦	٨٨٤	١٢١	
١٨٧٠	٣٦,٩	٢٢٣	٩٤٣	١٠٤٦	١٠٣	وفيات
١٨٧١	٣٦,٥	٢٦٢	٨٢٦	١٢٧٢	٤٤٦	»
١٨٧٢	٣٦,١	٣٥٢	٩٦٦	٧٩٣	١٧٢	
١٨٧٣	٣٦,٢	٣٢١	٩٤٦	٨٤٤	١٠١	
١٨٧٦	٣٦,٩	٢٩١	٩٦٦	٨٣٤	١٣٢	
١٨٨١	٣٧,٦	٢٨٢	٩٣٧	٨٢٨	١٠٨	
١٨٨٦	٣٨,٢	٢٨٣	٩١٣	٨٦٠	٥٢	
١٨٨٩	٣٨,٣	٢٧٣	٨٨١	٧٩٥	٨٥	
١٨٩٠	٣٨,٣	٢٦٩	٨٣٨	٨٧٦	٣٨	وفيات
١٨٩١	٣٨,٣	٢٨٥	٨٦٦	٨٧٧	١١	»
١٨٩٢	٣٨,٣	٢٩٠	٨٥٥	٨٧٦	٢٠	»

تعداد السكان بالملايين		الزواج في الألف	المواليد في الألف	الوفيات في الألف	زيادة المواليد والوفيات في الألف	
السنون	السكان					
١٨٩٣	٣٨٫٣	٢٨٧	٨٧٥	٨٦٨	٧	
١٨٩٤	٣٨٫٤	٢٨٧	٨٥٥	٨١٥	٤٠	
١٨٩٥	٣٨٫٤	٢٨٣	٨٣٤	٨٥٢	١٨	وفيات
١٨٩٦	٣٨٫٥	٢٩٠	٨٦٦	٧٧٢	٩٤	
١٨٩٧	٣٨٫٦	٢٩١	٨٥٩	٧٥١	١٠٨	
١٨٩٨	٣٨٫٧	٢٨٧	٨٤٤	٨١٠	٣٤	
١٨٩٩	٣٨٫٧	٢٩٥	٨٤٧	٨١٦	٣١	
١٩٠٠	٣٨٫٧	٢٩٩	٨٢٧	٧٥٣	٢٦	«
١٩٠١	٣٨٫٩	٣٠٣	٨٥٧	٧٨٤	٧٢	
١٩٠٢	٣٨٫٩	٢٩٤	٨٤٥	٧٦١	٨٣	
١٩٠٣	٣٨٫٩	٢٩٥	٨٢٦	٧٥٣	٧٣	
١٩٠٤	٣٨٫٩	٢٩٨	٨١٨	٧٦١	٥٧	
١٩٠٥	٣٨٫٩	٣٠٢	٨٠٧	٧٧٠	٣٧	
١٩٠٦	٣٩٫٢	٣٠٦	٨٠٦	٧٨٠	٢٦	
١٩٠٧	٣٩٫٢	٣١٤	٧٧٣	٧٩٣	٢٠	«
١٩٠٨	٣٩٫٢	٣١٥	٧٩١	٧٤٥	٤٦	
١٩٠٩	٣٩٫٢	٣٠٨	٧٦٩	٧٥٦	١٣	

النِّسَبُ باعتبار كل ألفٍ من السكانِ

فيما بين

السنون	عقود الزواج	والمواليد	والوفيات	زيادة المواليد والوفيات
١٨٠١	٧٫٣	٣٣٫١	٢٧٫٨	٥٫١
١٨٠٦	٧٫٢	٣١٫٥	٢٦٫٩	٤٫٦
١٨١٠	٧٫٩	٣١٫٤	٢٤٫٦	٦٫٨
١٨١٥	٨٫٣	٣٢٫٢	٢٥٫٨	٦٫٤
١٨٢١	٧٫٣	٣١٫٧	٢٤٫٣	٧٫٤
١٨٢٦	٧٫٨	٣١٫١	٢٦٫٣	٤٫٨
١٨٣١	٧٫٥	٣٠٫٣	٢٤٫٦	٥٫٧
١٨٣٦	٨٫٢	٢٩٫٢	٢٢٫٣	٦٫٩
١٨٤١	٨٫٢	٢٨٫٥	٢٣٫٢	٥٫٣
١٨٤٦	٧٫٦	٢٧٫٣	٢٣٫٢	٤٫١
١٨٥١	٨٫٠	٢٧٫١	٢٢٫٣	٤٫٨
١٨٥٦	٧٫٩	٢٦٫٣	٢٣٫١	٣٫٢
١٨٦١	٨٫٢	٢٦٫٩	٢٣٫٢	٣٫٧
١٨٦٦	٨٫٠	٢٦٫٤	٢٣٫٠	٢٣٫٢
١٨٧٠	٦٫٠	٢٥٫٥	٢٨٫٣	٢٫٨ وفيات
١٨٧١	٧٫٢	٢٢٫٦	٣٤٫٨	١٢٫٢
١٨٧٢	٩٫٨	٢٦٫٨	٢١٫٩	٤٫٩

النِّسَبُ باعتبار كل ألفٍ من السكانِ

فيما بين

السنون	عقود الزواج	والمواليد	والوفيات	زيادة المواليد والوفيات
١٨٧٣	٨٫٩	٢٦٫١	٢٣٫٣	٢٫٨
١٨٧٦	٧٫٩	٢٦٫٢	٢٢٫٦	٣٫٦
١٨٨١	٧٫٥	٢٤٫٩	٢٢٫٠	٢٫٩
١٨٨٦	٧٫٤	٢٣٫٩	٢٢٫٥	١٫٤
١٨٨٩	٧٫٢	٢٣٫٠	٢٠٫٧	٢٫٢
١٨٩٠	٧٫١	٢١٫٩	٢٢٫٨	١٫٠ وفيات
١٨٩١	٧٫٥	٢٢٫٦	٢٢٫٨	٠٫٣ »
١٨٩٢	٧٫٨	٢٢٫٤	٢٢٫٨	٠٫٥ »
١٨٩٣	٧٫٦	٢٢٫٧	٢٢٫٧	٠٫٢
١٨٩٤	٧٫٥	٢٢٫٥	٢١٫٣	١٫٠
١٨٩٥	٧٫٤	٢١٫٧	٢٢٫٢	٠٫٥ »
١٨٩٦	٧٫٦	٢٢٫٥	٢٠٫٢	٢٫٥
١٨٩٧	٧٫٦	٢٢٫٤	١٩٫٦	٢٫٨
١٨٩٨	٧٫٥	٢٢٫١	٢١٫٢	١٫٠
١٨٩٩	٧٫٦	٢٢٫٣	٢١٫٢	٠٫٨
١٩٠٠	٧٫٧	٢١٫٨	٢٢٫٤	٠٫٦ »
١٩٠١	٧٫٨	٢٢٫٠	٢٠٫١	١٫٩

obeikandl.com

النِّسَبُ باعتبار كل ألفٍ من السكانِ

فيما بين

السنون	عقود الزواج	والمواليد	والوفيات	زيادة المواليد والوفيات
١٩٠٢	٧٫٦	٢١٫٧	١٩٫٥	٢٫١
١٩٠٣	٧٫٦	٢١٫٢	١٩٫٣	١٫٩
١٩٠٤	٧٫٦	٢١٫٠	١٩٫٥	١٫٥
١٩٠٥	٧٫٦	٢٠٫٧	١٩٫٧	١٫٠
١٩٠٦	٧٫٨	٢٠٫٦	١٩٫٩	١٫٧
١٩٠٧	٨٫٠	١٩٫٧	٢٠٫٢	١٫٥
١٩٠٨	٨٫١	٢٠٫٢	١٩٫٠	١٫١
١٩٠٩	٧٫٨	١٩٫٦	١٩٫٣	٠٫٣

مَنْ طالَعَ هذا الجدولَ رأى العَجَبَ كلَّ العَجَبِ فى إحصاءِ المواليدِ : فَقَدْ كانَ عددُها ، فى مُنْتَصَفِ عهدِ الأمبراطوريَّةِ الثانية ، يربو قليلاً على المليونِ سنوياً ؛ بل كان بالضَّبْط مليوناً وخمسةَ آلافٍ ، عام ١٨٦١ ، ومليوناً وستةَ آلاف ، عام ١٨٦٦

ومع أنَّ هذا العددَ كانَ صغيراً بالمُقابلةِ بينهُ وبين

مُتوسِّطِ المواليدِ فى سائرِ الأقاليمِ الأوربيَّةِ ؛ لكنَّهُ كانَ يُنيفُ مائةً وعشرينَ ألفاً أو مائةً وأربعينَ ألفاً على الوَفياتِ ؛ فتزدادُ بهِ الأُمَّةُ ازدياداً طفيفاً ويَفْضُلُ عنها فى كلِّ سنةٍ عَشَراتُ آلافٍ مِن الأَنْفُسِ لِلهِجرةِ إِلى المُستعمَراتِ أو إِلى الخارجِ

وعلى ذلك فالحالةُ التَّناسُلِيَّةُ يَوْمئِذٍ كانت غيرَ سارَّةٍ لِعَدَمِ وَفائِها بِما يقتضيهِ تأييدُ مَكانَتِنا السِّياسيَّةِ ، وتعزيزُ منزِلَتِنا الاقتصاديَّةِ فى أُوربا وفى العالَمِ أَجْمَع ، إِلاَّ أَنَّها لم تكُنْ مُنْذِرةً بِعاجِلِ الخَطَرِ

دَعْ سَنَتَيْ ١٨٧٠ — ١٨٧١ وبعضَ السَّنواتِ التى أَعْقَبَتْها لِما طرأَ فيها من الطوارئِ غيرِ المألوفةِ ، ثُمَّ ارجع إِلى بيانِ المواليدِ : تجدْ أَنَّ عددَها نَزَلَ عن المليونِ منذُ نُشوبِ تلك الحربِ ولم يبلُغْهُ بَعْدَها

نعم إِنَّنا فَقَدْنا الأَلزاسَ واللُّورين[1] لكنَّ مواليدَها تَيْنِ

---

(١) الألزاس واللورين : مُقاطعتان فقدتهما فرنسا على أثر تلك الحرب وانضمتا الى الأمبراطورية الألمانيـة : —
L'Alzace et la Lorraine

الولايتين كانت لا تتجاوزُ الستةَ والثلاثين ألفاً من الأنفسِ

ثُمَّ جاءَ عامُ ١٨٧٦ والعشرةُ الأعوامِ التى تلتهُ ، فأخذَ متوسّطُ المواليدِ يتراوحُ بين تسعمائةٍ وستةٍ وستينَ ألفاً وتسعمائةِ ألفٍ أو فوقها بيسيرٍ ؛ وكانَ فى هذا القدرِ نقصانٌ محسوسٌ عن الأرقامِ التى تُقابلهُ فى منتصفِ عهد الأمبراطوريّة الثانيةِ ، مع صرفِ النظرِ عن عددِ المواليدِ فى الولايتين المفقودتين

غيرَ أنهُ حدثَ أنَّ الوفياتِ قاتْ فى هذه المدّةِ فبقيَ للمواليدِ مزيدٌ على الوفياتِ يتراوحُ سنوياً بين خمسينَ ألفاً ومائةٍ وثلاثين ألفاً

إلاَّ أنَّ الخطرَ لم يلبثْ أن ظهرَ من جانبين : تناقُصِ المواليدِ ، وتناقُصِ الفرقِ بين المواليدِ والوفياتِ ؛ ثمَّ مشى مطّرداً ، فبعدَ أنْ نزلَ معدّلُ المواليدِ عن المليون فى منتصفِ عهدِ الأمبراطوريّةِ الثانيةِ الى تسعمائةِ ألفٍ ، لم يُعتِّم أن انحطَّ عن هذا القدرِ أيضاً حتى إذا جاءت سنة ١٩٠٠ لم يكنْ مبلغهُ إلاَّ ثمانمائةٍ وسبعةً وعشرين ألفاً

فلماَّ افتُتِحَ القرنُ العشرون أخذت تلك العِلَّةُ بالانكماشِ[١] فى سَيْرِها قُدُماً[٢] فما دخلت سنة ١٩٠٧ حتى هَبطَ مُعَدَّلُ المواليدِ عن ثمانِمائةِ الأَلْفِ وانحدرَ إلى سبعِمائةٍ وتسعةٍ وستين ألفاً فى سنة ١٩٠٩ .

وعلى هذا السِّياقِ بلغت جملةُ النُّقصانِ فى الرَّقمِ السَّنويّ للمواليد مائتين وثلاثين ألفاً أى ثلاثةً وعشرين فى المائةِ منذُ مُنتصف الأمبراطوريّةِ الثانيةِ ، وسبعينَ ألفاً منذُ سنة ١٨٩٠

إنَّ سنة ١٨٩٠ هذهِ ، غيرُ بعيدةٍ عناَّ ، ولو اتَّخذناها مبدأً لإحصاءٍ من نَوْعٍ آخرَ، لَعَدَدْنا فى خِلالِ المدَّةِ التى بيننا وبينَها ستةَ أعوامٍ كانت فيها المواليدُ أقلَّ من الوفياتِ فى فرنسا ؛ فيَجُوزُ القَوْلُ بلاَ تعرُّضٍ للخطإِ ، إنَّ زيادةَ الوفياتِ على المواليدِ لَنْ يطولَ بِها الزَّمنُ حتى تُصبِحَ حالةً ثابتةً

أجَلْ ، إنَّ نقصانَ المواليدِ لم يبلُغْ حَدَّهُ عن يقينٍ ؛

---

(١) الانكماش : السرعة (٢) قُدُماً : أماماً

وإذا لم تُتَّخَذْ أسبابُ الحَيْطةِ الشديدةِ لِتَلافى هذا الداء ، فَمِن المُحقَّقِ أنَّ مُعَدَّلَ المواليدِ ، بَعدَ أنْ بَلغَ نُقصانُهُ مائتين وثلاثين ألفاً منذ انتصافِ الأمبراطوريَّةِ الثانيةِ ، وسبعينَ ألفاً منـذ سنة ١٨٩٠ ، لا يلبَثُ أن يَفْقِدَ مائةَ ألفٍ من مجموعِ رَقْمِهِ قبلَ انقضاءِ رُبعِ القرنِ ، ثمَّ لا يلبَثُ أن يَفْقِدَ بعدَهُ ما شاءت سُرعةُ التَّدَهْوُرِ وقُوَّةُ الانحدارِ

فقد نَبَّهْنا غيرَ مرَّةٍ ، منذ سنة ١٨٩٠ ، فى جريدةِ « الديبا [١] » وفى مجلَّة «العالَمَيْنِ [٢]» وفى جريدتنا الخاصةِ المُسَمَّاةِ « بالاقتصاديِّ الفرنسيِّ [٣]» ، على الأسبابِ الأَصليَّةِ التى نشأَت عنها هذه العِلَّةُ الغائِلةُ : وفى طليعتِها ضَعْفُ العقائِدِ الدّينيَّـةِ التى يتغالى أَوْليـاءُ الأمورِ فى اضطهادِها بِلا تبصُّرٍ

---

(١) الديبا Journal des Débats : جريدة يومية فرنسية شهيرة

(٢) مجلة العالمين : Revue des deux mondes : مجلة فرنسية من أقدم وأكبر مجلات أوربا

(٣) L'Economiste français

فإنهُ لَوْ جاءَ يَوْمٌ تُصبحُ فيهِ بريطانيا [١] والڤنده [٢] واللوزير [٣] والاڤيرون [٤] والكُورُ الفلمنكيَّةُ من مقاطعاتِ الشمال، ورأْيُها فى الحياةِ الدنيا كرأْي بُرْغونيا [٥] وغسقونيا [٦] لَخَسِرَت فرنسا أربعينَ ألفاً من المُعَدَّلِ الرَّاهنِ فى مواليدِها كلَّ عام ؛ إذ أنَّ الولايَتَيْنِ المذكورتَيْنِ قد تغلَّبت على طِباعِ أهلِهما عِبادَةُ الرِّزْقِ وشِدَّةُ النَّزْعةِ إلى الحُطامِ والطَّماعِيةُ فى جَمْعِ الثروةِ للبَنين

هذه الخِلالُ الثلاثُ هى أسبابُ العِلَّةِ ؛ وبيِّنٌ أنَّها خياريَّةٌ مَحْضةٌ

لا جَرَمَ أنَّ الناسَ ما زالوا يتأهَّلونَ فى فرنسا بِما يقرُبُ من القدرِ المعهودِ ؛ لكنَّ الأكثرينَ ينتقِصونَ نَسْلَهُم بِفِعْلِهم وأحياناً يمنعونَهُ بَتاتاً

---

(١) بريطانيا La Bretagne (٢) الڤنده La Vendée

(٣) اللوزير La Lozère (٤) الأڤيرون L'Aveyron

(٥) برغونيا La Bourgogne (٥) غسقونيا : La Gascogne : هذه وجميع المذكورات قبلها مقاطعات فى فرنسا

وليسَ بخافٍ على أحدٍ أنَّ طائفةً من الفتيانِ المتزوّجين حديثاً يحتالونَ حتى لا يُرزَقُوا ولَداً، وأنَّ السوادَ الأعظمَ من الأُسَرِ الأخرى يحتالونَ حتى لا يكونَ لهم إلاَّ ولدٌ فَذ [١] أو اثنانِ فى الغايةِ

إذا كانت الحالةُ كما وَصفْنا فوَخامةُ العاقبةِ لا تقتصرُ على ما يراهُ فيها الجمهورُ من المَساسِ بسُلْطَتِنا السّياسيَّةِ والكَسْرِ من شوكَتِنا العسكريَّةِ والثَّلْمِ لِكرامَتِنا الوطنيَّةِ فإنَّ كلَّ هذه الأمورِ تكادُ تكونُ فى الرُّتبةِ الثانيةِ من الخُطُورةِ بجانبِ الخَطْبِ الأكبرِ الذى يتناوَلُهُ سوءُ المَغَبَّةِ [٢]

وما ذلك الخَطْبُ الأكبرُ الذى يتناوَلُهُ سُوءُ المَغَبَّةِ: سوى عَفَاءِ [٣] الأمَّةِ نفسِها. فقد يَصحُّ القَوْلُ إنَّ الفرنسيّينَ الخالِصينَ [٤] نَسَباً، أى مَحْضَ الفرنسيّينَ، لا يتعاقَبُ عليهم مَدَى ستَّةٍ من الأجيالِ حتى ينقرِضُوا

---

(١) فذ: فرد (٢) المغبة: العاقبة (٣) العفاء: الزَّوال (٤) الخالص: هو الصافى من كل شىء

ذلكَ لأَنَّكَ إِذا اتَّخَذْتَ ، مثلاً : عشرةً من الرّجالِ المُتأَهِّلين ، وَجَدْتَ أَنَّ خمسةً منهم يقنعونَ بالسَّليلِ (١) الفَذِّ ، والخمسةَ الآخرين يقنعون باثْنَيْنِ لا غَيْرُ ؛ فإِن أخطأَ بعضُهم الحِسابَ وأُوتِيَ ولداً ثالثاً ، فإِلى جانبِهِ مَنْ يأبى الذَّرِّيَّةَ ولا يَلِدُ البتَّةَ

أُولئك العشرون من الأَزْواجِ والزَّوْجاتِ لا يُرْزَقون إِذَن من البنين إِلاَّ خمسةَ عشرَ ، وهوَ القدرُ الذى يُعَيِّنُونَهُ — وهُم على تحديدِهِ قادِرون — فماذا تكونُ النتيجةُ من عَملِهِم ؟

النتيجةُ أَن يكونَ الخمسةَ عشرَ من الأَبناءِ خلَفاً للعشرين من الآباءِ

فإِذا استمرَّ السَّيْرُ على هذه الوتيرةِ ثلاثةَ أَجيالٍ ، أَو مائة عامٍ فى الأَكثرِ ، لم يلبَث الشعبُ الفرنسيُّ الخالِصُ النَّسَبِ أَن يصيرَ من تِسعةٍ وثلاثينَ مليوناً إِلى عشرينَ مليوناً أَو دونَها ؛ ثمَّ إِذا تعاقبت عليهِ ثلاثةُ أَجيالٍ أُخَرَ ،

---

(١) السليل : الولد

وشأنهُ كما وَصفناهُ ، لم يلبث أن يصيرَ من عشرينَ مليوناً إلى عشرةِ ملايين

وعلى هذا النَّحوِ، لا تنقضي ستةُ أجيالٍ أو تتصرَّمُ[١] مائتان من الأعوامِ، حتى يكونَ الشعبُ الفرنسيُّ الخالِصُ النَّسَبِ قد هبطَ من تِسعةٍ وثلاثينَ مليوناً إلى ما دونَ العَشَرَةِ الملايين

ذلكَ ما نحنُ عليهِ مُقْبلُونَ ، وإنْ هوَ إلاَّ القَضاءُ المحتومُ، ما لم نُقدِّم الحذَرَ ونَحتَطْ بِقُوَّةٍ لِدَرْءِ[٢] المَصابِ

يقينٌ أنَّ فرنسا يَوْمئذٍ لَنْ تخلوَ من المُستَوْطِنين . فإنَّ الجاليات ستُطْبِقُ من كُلِّ جانبٍ على ذلك الإقليمِ الذى لا يضاهيهِ إقليمٌ باعتدالِ هَوائهِ ولا يُماثِلُهُ بلدٌ من بُلدانِ أوربا بخِصْبِ تُرْبتهِ، وإن فاتهُ شيءٌ من ثَراءِ المناجمِ

ستُطْبِقُ عليهِ تلك الجاليَاتُ فيَحُلُّ محَلَّ الخُلَصاءِ من أهلهِ أَخلاطٌ مُتكوِّفُون[٣]: بعضُهم بلچيكٌ فلَمَنْكٌ (ولا

---

(١) تتصرَّمُ : تنقضي (٢) درء المصاب : دَفْعُهُ

(٣) متكوِّفون : مجتمعون من أمكنة مختلفة

نذكر البلچيك الوالونيين[١] لِقِلَّةِ تَناسُلهم) وبعضُهم ألمان، ومنهم الإسپانيُّون، ومنهم الإيطاليُّون، ومنهم البولُونيُّون

ولقد بدأَت تلك الهِجرةُ إلى فرنسا منذُ بِضْع سِنِينَ، فأُسِّسَتْ فيها وَكالاتٌ[٢] تَستَقْدِمُ جماهيرَ من الإيطاليِّين والبولونيِّين لِلعملِ فى مُقاطَعاتِ الشَّرْقِ وفى مقاطعاتِ الشَّمال

فَتِلك الأَخلاطُ المُتباينةُ الأَجناسِ هى التى ستُخلِفُ الشعبَ الفرنسيَّ الصميمَ، المُنْدَفعَ فى هاوِيَةِ الانقراضِ، الصَّائِرَ — على ما فَصَّلْناهُ سابقاً — إلى ضَياعِ نِصفهِ فى مَدَى ثلاثةِ أجيالٍ، وإلى ضياعِ ما يربو على ثلاثةِ أرباعهِ فى مدى ستةِ أجيالٍ

هكذا تَنْتَحِرُ الأُمَّةُ الفرنسيَّةُ، فَهَلْ من تَلافٍ[٣] لهذا الخَطْبِ الجلل ؟

---

(١) الوالونيين Wallons : هم الذين يقطنون الجنوب الشرقيَّ من بلچيكا (٢) وكالات جمع وكالة : وهو اصطلاح لتسمية المحالّ التى تتَّجر باستقدام المهاجرين أو ترحيلهم (٣) تلافٍ لهذا الخطب : تدارك له قبل وقوعه

إِنَّنا لَنَرْجُو تَلافِيَهُ ؛ ومَهْما يَحُلْ دونهُ من الحوائلِ ، فما زِلْنا جُدَراءَ بالمُدافعةِ والمُمانعةِ

يَجبُ علينا أن نَسْعَى كلَّ مَسْعَى لإدراكِ هذهِ الغايةِ : لا بإكراهِ الآباءِ على استرزاقِ [١] البنين سُباعَ أو عُشارَ [٢] إذ قلَّما يتهيأُ [٣] لِبَيْتٍ مثلُ هذا العددِ ؛ ولَوْ تهيأَ ، ففي كَفالَتِهِ من العَنَتِ [٤] ما لا يَطيقُهُ كلُّ كاسبٍ [٥] ؛ بل برياضةِ الأَذهانِ على عقيدةِ أنَّ الأُسرةَ لا تَسْتَكْمِلُ استكمالاً طبيعياً ووَطنياً ما لم يكُنْ لها ثلاثةٌ من البنين أو يزيدونَ ؛ وبِحَمْلِ أَوْلياءِ الأَحكامِ على مَنْحِ ما تُخوِّلُهم السُّلطةُ من المَنافعِ والمَيْزاتِ لِآباءِ الثلاثةِ من الأَبناءِ فما فَوْقُ

أَشَرنا منذُ خمسَ عشرَ سنةً ، في جريدة « الديبا » وفي

---

(١) استرزاق : استمداد البنين (٢) سُباع أو عُشار : سبعةً سبعةً أو عشرةً عشرةً (٣) يتهيأ : يتيسَّر (٤) العنت تحمُّل الصعب (٥) الكاسب : هو الذى يكسب لعيالهِ رزقهم

« الاقتصاديِّ الفرنسيِّ » ، إلى ما يَحسُنُ التَّذَرُّعُ [١] بهِ من الذَّرائعِ لإنماءِ التَّناسُلِ بين القَوْمِ ، فإنْ لم يتيسَّر الإنماء ، فَلِلْوُقوفِ بعَدَدِ الأُمَّةِ عندَ حَدِّهِ الرَّاهنِ وإنْ كان شحيحاً كلَّ الشُّحِّ [٢]

أمَّا الأولى من تلك الذَّرائعِ : فأن يُجارَى الجُمهورُ الفرنسيُّ على ما لهُ من الميلِ إلى خدمةِ الحكومةِ فتُخَصَّ الوظائفُ العامَّةُ إطلاقاً بكُلِّ مَنْ لهُ ثلاثةُ أولادٍ أحياءٍ أو فَوْق الثلاثةِ ، من الآباءِ والأُمَّهاتِ ؛ ولا يُثبَّتَ فيها غيرهم

فإذا عارَضَنا مُعارِضٌ في هذا الصَّدَدِ أجَبْنا : أنَّ كلَّ ما يُحتَجُّ بهِ لا ينزِلُ بجانب هذه المُعْضِلَةِ [٣] الجَوْهريَّةِ إلاَّ منزلةَ العَرَضِ

وما تلك المُعْضِلةُ سوى ما يُلَخَّصُ في سُؤَالِ السائلِ: أَتَتحتَّمُ وِقايةُ الأُمَّةِ الفرنسيَّةِ الأصليَّةِ من الانحارِ أَمْ يُلْقَى لها الحَبْلُ على الغَارِبِ فتمشِي إلى العَفَاءِ فاقدةً نِصفَها

---

(١) التذرع : التوسل كما قدمنا (٢) الشحّ : القلة

(٣) المعضلة : ما أشكل من الأمر وصعب حله

على توالى ثلاثة أجيالٍ ، ثمَّ البقيَّةَ الباقِيَةَ منها على توالى ثلاثةٍ أو أربعةٍ من الأجيالِ الأُخَرِ ؟

إِنَّنا لَنُؤَيِّدُ رأْيَنا هذا تأْييداً ونُلِحُّ بِتَقاضى العملِ بهِ لأَنَّهُ أساسيٌّ بل حَيَويٌّ

وأَمَّا الذَّريعةُ الثانيةُ : فأَن يُمْهَرَ (١) كلُّ مَوْلودٍ حيٍّ بعد الولَدَيْنِ الأَوَّلَيْنِ بخمسمائة فرنكٍ تُؤَدَّى على نَجْمَيْنِ (٢) سَنَوِيَّيْنِ

ومبلغُ ما تضطرُّ الحكومةُ لإِنفاقهِ فى هذا البابِ ، على ما قَدَّرْناهُ ، مائةٌ وخمسونَ أو مائةٌ وخمسةٌ وسبعونَ مليون فرنكٍ فى العامِ ؛ وهوَ خَيْرٌ مما تُصْرَفُ فيهِ الأموالُ الطائِلةُ من التَّوافهِ والأباطيلِ فى غيرِ هذا السبيل

قد يَعترِضُ علينا أُناسٌ من حيثُ جَسَامةُ المِقدارِ الذى يُعَيَّنُ لتلك المُهورِ، وما ينبغى لَهُم الاعتراضُ : لأَنَّ هذه الأموالَ إِنَّما يُشترَى بها بقاءُ الأُمَّةِ الفرنسيَّةِ الصريحةِ ؛

---

(١) يمهر : يعطى صِلةً

(٢) النجم : القسط كما سبق

وأَرْخِصْ[١] بِهِ مَهْما غَلاَ فى جانبِ بقائِها

طَفِقَ[٢] أَوْلياءُ الحلِّ والعقْدِ، فى خِلاَلِ سنة ١٩١٠، يشعرونَ بِما سيُفْضِى اليهِ القَوْمُ من سوءِ النِّهايةِ ما لم يُتَدارَكْ خَطْبُهم بالوسائلِ السريعةِ الفعَّالةِ المُثابرِ عليها؛ فاقترَحَ لانلُنْج[٣] وفريقٌ مِنْ زُمَلائِهِ فى مجلسِ الأعيانِ بعضَ ما اقترحناهُ منذُ خمسةَ عشَرَ حَوْلاً، وَلَمْ يَجْسُرُوا على خَوْضِ الغَمْرَةِ[٤] بِلاَ احتراسٍ

قالوا بإيجابِ الزَّواجِ على كلِّ مُوَظَّفٍ عامٍّ يبلُغُ الخامسةَ والعشرينَ من السِّنِّ؛ لكنَّهُ فاتَهم أنَّ الزَّواجَ إِذا جاءَ عقيماً أو أشبهَ بالعقيمِ، لم تحصُلِ الفائدةُ المقصودةُ

ولهذا كان لا بُدَّ من إِيجابِ الولدِ الثالثِ

يرضى بِهذا الشَّرْطِ مَنْ تَصَدَّى للخدمةِ العامَّةِ، ويأباهُ مَنْ لا يتصدَّى لها، ولا عَنَتَ على أحدٍ ولا إِكراهَ

---

(١) أرخص بِهِ: صيغةٌ بمعنى ما أرخصهُ

(٢) طفق: شَرع وأخذ (٣) Lanelongue

(٤) خوض الغمرة: اقتحام المسألة

ثمَّ قالَ أُولئك الأعيانُ بجَعْلِ عِلاَواتِ الرَّواتبِ تبعاً لِعَدَدِ البنين . وهذا حَسَنٌ إِن كانت العِلاَواتُ ذات بالٍ

فَلأَجْلِ الحُصولِ على المالِ الذى تتطلَّبُهُ تلك الزِّياداتُ من غيرِ أنْ يُثْقَلَ كاهِلُ الخزانةِ ، ينبغى — مع رِعايةِ الحُقوقِ السَّابق اكتِسابُها — جَعْلُ الرَّاتبِ المُعيَّنِ لِكلِّ خدمةٍ مُعادِلاً لِنفقاتِ بَيْتٍ ذى ثلاثة أولادٍ أحياء ؛ فَمَنْ وَلِيَ خدمةً وأولادُهُ دونَ الثلاثةِ ، خُفِضَ راتبُهُ ، ومَنْ وَلِيَها عَزَباً [1] ، كانَ راتبُهُ أشدَّ نُقْصاناً

الولدُ الثالثُ هوَ الشَّرْطُ الذى يتحتَّمُ على الحكومةِ اشتراطُهُ بِجَلاءٍ وحَزْمٍ دون خِدْمَتِها ودونَ ما تجودُ بهِ من الميزاتِ والمنافعِ

وفى اقتراح لائِحَةِ وَزُملائِهِ ما يَجْدُرُ باتخاذِهِ أساساً لِلبَحْثِ ؛ غيرَ أنهُ ليسَ وافياً بالغَرَضِ ولا بُدَّ من الرُّجوعِ بَعدَهُ إِلى الذَّريعتَيْنِ اللَّتَيْنِ أَشَرنا إِليهما

---

(١) عزَباً : غير متزوّج

فإذا خِيفَ مِنْ مُهاتَرَةِ المُتَظرّفينَ [١] واعتراضِ المُستهزِئينَ على التَّوَسُّلِ بِمِثْلِ هاتَيْنِ الوسيلتَيْنِ لِلنَّجاةِ بالامَّةِ من الانقراضِ ، رَدَدْنا : بأنَّ من الأُممِ التى جاءَنا التاريخُ بِسيَرِها مَنْ ماتَ وَلَم يَعْصِمْهُ التَّنَطُّسُ وَلم يَصُنْهُ التَّكايُسُ [٢] فلا يَجْمُلُ بِنا أن نَدَعَ فرنسا تموتُ هذه المِيتةَ

إنَّما المسألةُ التى تُلْقيها علينا الوَقائِعُ الشاهدةُ هى هذه : هل القَوْمُ الفرنسيُّون الخُلَصاءُ يرغبون فى البقاءِ أو عن البقاءِ [٣] ، وهل يُريدون أن يستمرُّوا آهِلين لِدِيارِهم أو يتولَّوْنَ عنها لِيُحِلُّوا مَحلَّهم فيها تلك الأخلاطَ المُتباينةَ الأجناسِ ؟

على أنَّ أخلَقَ تلك الاعتراضاتِ بالذِّكرِ قَوْلُهُم إنَّ الحكومةَ ، بإقصائِها عن خِدمَتِها الأعزابَ والآباءَ الذين ليسَ لهم ثلاثةُ أبناءٍ ، قد تَفْقِدُ الأفْضَلِين من أعوانِها

---

(١) المتظرّفين : الذين يبدون الظُرف والكياسة

(٢) التكايس : التظاهر بالكياسة Spiritualisme

(٣) يرغبون عنهُ : ضدُّ يرغبون فيهِ

غيرَ أنَّ هذا الزَّعْمَ لا يُعَوَّلُ عليهِ

وفى الواقعِ أنَّ الحكومةَ لا تحتاجُ فى خدمتِها إلى أفاضلِ القَوْمِ من أمثالِ كِبارِ الشُّعَراءِ ونابغى الفنونِ وأهلِ الاختراعِ والابتكارِ على اختلافِ ضُروبِهما، فإنَّ أضرابَ[١] هؤُلاءِ الصَّفْوَةِ[٢] المُتَفَوِّقينَ لَيَجِدُونَ ما يَسَّرَتْهُ لَهُم طبائعُهُم من الأعمالِ فى الحِرَفِ الطَّليقةِ[٣] التى يَنْزِلونَ منها فى منازِلِهم ويبلُغُونَ غاياتِ الرُّقيِّ فيها مُسْرِعين على قَدَرِ هِمَمِهِم

هذهِ الشركاتُ المساهمةُ القديرةُ التى ينمو عددُها على مَرِّ الأيَّام، فيها لِلْمُهندسين والمُدَبِّرينَ وسائرِ النابغين من الرِّجالِ، أمكنةٌ أليقُ لهم وأرْحَبُ بهم من مَناصِبِ الحكومةِ التى يمشى الرُّقيُّ فيها مَشْياً بطيئاً إلاَّ فيما نَدَرَ

دَعْ أنَّ مَناصِبَ الحكومةِ، ومُعْظَمُها نَمَطيَّةٌ[٤]،

---

(١) أضراب : أمثال (٢) الصفوة : النخبة

(٣) الحرف الطليقة : غير المقيدة Professions libres

(٤) نمطية : تعمل فيها الأعمال على وتيرة آلية مألوفة

لا تتطلَّبُ غيرَ ما فى الدرجةِ الوُسطى من الكفاءاتِ التى أصبحت فى المجتمعاتِ الرَّاهنةِ شائعةً عميمةً بسببِ انتشارِ العِلْمِ

فقَصْرُ الوظائفِ العامَّةِ على الآباءِ الذين لهم ثلاثةُ أبناءٍ فما فَوْق ، لا يُلْحِقُ إذاً ضرراً مذكوراً بأعمالِ الحكومةِ ولا بالحاذِقين المُبَرَّزينَ [١] من الأفرادِ

بعدَ هذه الوسيلةِ يَجبُ الالتفاتُ إلى أُختِها الثانيةِ : وهى تَعْيينُ مَهْرٍ مِقدارُهُ خمسُمائةِ فرنكٍ لكلِّ ولدٍ حيٍّ ثالثٍ أو بعدَ الثالثِ بلا استثناءٍ ولا نَظَرٍ إلى كَوْنِ الأُسرةِ غنيَّةً أو فقيرةً ، منعاً لكلِّ رَيْبٍ واشتباهٍ

فإذا مُنِحَ ذلك المَهْرُ تعيَّنَ إيصالُهُ [٢] على قِسْطَيْنِ : أوَّلُهما ثلاثُمائةِ فرنكٍ تُؤَدَّى بعد الولادةِ بزَمَنٍ يسيرٍ ؛ وثانيهما مائتا فرنكٍ تُؤَدَّيانِ بعد انقضاءِ عامٍ

أمَّا إذا رَجعنا إلى المُشابَهةِ ، فما مِنْ أُمَّةٍ فى المعمورِ أقلُّ مُناسَلَةً بِمُعَدَّلِها السنويِّ من الأُمَّةِ الفرنسيَّةِ . وقد

---

(١) المبرّزين : المتفوّقين على أقرانهم (٢) إيصاله : أداؤه

رأَينـا أنَّ ذلك المُعَدَّلَ فى بلاَدِنا قد هبَطَ إِلى ما دونَ العشرينَ بالنسبةِ إِلى كلِّ ألفٍ من الأهلين ؛ على نقيضِ مجراهُ عندَ الشُّعوبِ التى تُجاورُنا

فإِنَّ مُعَدَّلَ المواليدِ فيها ، مع نُزوعهِ البطىءِ الى النُّقصانِ ، قد كانَ فى ألمانيا بين سنَتَيْ ١٩٠٧ و ١٩٠٩ بنسبةِ اثنين وثلاثينَ إِلى كلِّ ألفٍ من السكانِ ، وفى إِيطاليا بنسبةِ واحدٍ وثلاثين إِلى الألف ، فهُوَ فى ذَينكَ البلدَيْنِ مُنيفٌ خمسين أو ستين فى المائةِ على مِثلهِ فى فرنسا

وكانَ مبلَغُ ذلك المُعدَّلِ فى إِنجلترا وإِرلندا بنسبةِ خمسةٍ وعشرين أو ستةٍ وعشرين الى الألفِ ؛ وفى بلجيكا بمثلِ تلك النِّسبةِ ، فَزِيادتُهُ فى هذَينِ الإِقليمَين بين الرُّبعِ والثُّلثِ عن مثلهِ فى فرنسا

ولا نذكُرُ النمسا والمجرَ وَرُوسيا والبِقاعَ البلقانيَّةَ من الأقطارِ التى مُعدَّلُ مواليدها أربعون فى الألف فما فوق ، وهو ضِعفا مثلهِ فى فرنسا

ولنَقُلْ فى الخِتامِ إِنَّ زيادةَ المواليدِ على الوَفياتِ فى

الامبراطوريَّةِ الألمانيَّةِ تتردَّدُ بين ثمانمائةِ ألفٍ وتسعمائةِ ألفٍ ، وفى إنجلترا تبلُغُ خمسمائةِ ألفٍ ؛ وأنَّ النموَّ يَطَّرِدُ بين القِلَّةِ والكَثْرَةِ فى سائرِ البُلدانِ . أَما فرنسا فإنَّ سكانَها لم يُجاوِزوا عـدداً معلوماً منذُ ابتداءِ القرنِ العشرينَ والأَدِلَّةُ فيهم مُحقَّقةٌ على النُّزُوعِ الى الاضْمِحْلَالِ القريب

﴿ انتهى القسم الرابع ﴾